ناس في الظل وقضية النثر العربي

بقلم صبري حافظ

وجّه النقاد العرب القدامى ، عند حديثهم عن النثر العربي ، جل اهتمامهم الى الجانب اللغوي فيه ... سواء من (نقد النثر) المنسوب لقدامة بن جعفر او في (اسرار البلاغة) و (دلائل الاعجاز) لعبد القادر الجرجاني او في (سر الصناعتين) لابي هلال العسكري. وتركز اهتمامهم حول القضايا اللغوية من قواعد النحو الى الاشتقاق وصيغ الاسماء والافعال الى التشبيه واللحن في احواله المختلفة والرمز والوحي والاستعارة واللغز والحذف والصرف والمبالغة والقطع والعطف والتقديم والتأخير والاختراع والتقريب .. الخ .. وكان هذا الاتجاه هو النتيجة الطبيعية لانصراف الناثرين العرب القدامى الى العناية باللغة قبل غيرها من الامور . فكتاب علي بن أبي طالب وعبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع وابن العميد والصابي وغيرهم صفحات مشرقة من اللغة الرصينة الصافية ودروس بليغة في ضروب المهارات اللغوية التي عددنا بعض نواحيها في السطور السابقة .

أما النقاد العرب المحدثون فقد أسقطوا من مجال اهتمامهم هذا الجانب اللغوي في نزوعهم الى التمرد على ما في الذات العربي من قصور وفي حنينهم الى تعميق اتصالهم بالنقد الاوروبي الحديث . فقد اعترف نقدنا الحديث من معين النقد الاوروبي منذ أرسطو حتى احدث النقاد المعاصرين ، دون ان يحاول أن ينكىء على هذا النقد الحديث ، وعلى اللمحات المشرقة في نقدنا العربي القديم عند من ذكرنهم أو عند ابن سلام الجمحي والآمدي وابن الاثير وغيرهم ليقيم فوق هذا كله صيغة نقدية عربية خالصة ، تهتم بالطبيعة الخاصة للفننا التليدة في نفس الوقت الذي تهتم فيه بتطويع الاشكال الفنية الوافدة لطبيعتنا وقضايانا . فقد اكتفى النقد الادبي الحديث عندنا بالتركيز على الفنون النثرية الحديثة الوفود الى الادب العربي . وحاول ان يرسخ القواعد البنائية لهذه الفنون الوافدة من اقصوصة او رواية أو مسرحية .. دون أن يعير النثر العربي في خدمة اللغة واثرائها التفاتا (١) . ربما لان اشتداد عود النقد العربي الحديث قد رافق غياب كتابات الناثرين المحدثين الذين خدموا اللغة وحببوها الى نفوس القراء مثل مصطفى لطفي المنفلوطي وعبد العزيز البشري وعبد الله فكري وحفني ناصف وغيرهم .. كما رافق في نفس الوقت ازدياد التطلع الى اوروبا الحضارة ، وتنامي الاهتمام بفنونها الوافدة . حتى تستوعب هذه الفنون نزوع الشخصيه المصرية الى الاستقلال والتبلور غب الثورة القومية الكبرى عام ١٩١٩ .

وقد كان باستطاعة هذه الفنون الجديدة ان تخدم اللغة العربية أجلّ الخدمات وان تعمق ثقافتها على التعبير عن عشرات المعاني الجديدة والاحاسيس الجديدة والانفعالات الجديدة . بل نستطيع ان نجزم بان النماذج الجيدة من نتاج هذه الفنون الجديدة قد أرهفت اللغة ووسعت أفقها وأثرت مفرداتها . غير ان طبيعة الرحلة التاريخية التي قطعتها هذه الفنون الجديدة في مسيرتها نحو النضج والتبلور هي التي خلقت من النقد الادبي ذلك التيار الذي اقام تعارضا ممجوجا بين اللغة والبنيان الفني . فاذا تحدثنا عن الاقصوصة مثلا ، وهو حديث يمكن أن ينطبق مع شيء من التحوير على الرواية والمسرحية ، نجد ان نشر الاقصوصة في احضان المقامة لفترة طويلة هو الذي دعا النقد الى خلق ذلك الانفصام بين اللغة الرصينة المشرقة والعمل الاقصوصي الناضج ... وقد ساهم في تعميق هذا الانفصام وتوكيده مجموعة اخرى من العوائق الثانوية منها ان اعمق الكتّاب حسا باللغة ، كانوا ـ لسوء الحظ ـ أقلهم احساسا بالشكل الفني الوافد وأقلهم اتصالا بنماذجه العالمية الجيدة . وان أكثر الكتّاب معرفة بأسرار الشكل الجديد كانوا أقلهم احفاء باللغة واسرارها . وان النماذج الجيدة الاولى من القصة القصيرة في مصر ولدت في احضان المترجمين وعلى أيديهم ، وان كسل بعض العارفين بأسرار اللغة والفن القصصي عاقهم عن البحث عن اللغة الجديدة الملائمة لهذا الفن الجديد ، دون استعارة لغة المقامة أو المقالة الادبية له . لغة قادرة على الوفاء بمتطلبات العمل القصصي وقادرة في الوقت نفسه على الاحتفاظ بصفاء اللغة العربية وخصائصها الاصيلة . لهذه العوامل وغيرها تعمق الانفصام بين اللغة والقالب الفني الجديد . واصبح الاهتمام باللغة عبئا على هذه الاشكال الفنية الوليدة . وظلت اللغة من أهم قضايا الاقصوصة المصرية المعلقة دون حل حتى الآن . صحيح ان هناك اسهامات هامة لبعض كتّاب القصة الكبار في هذا المجال .. غير ان المشكلة ما زالت في انتظار المزيد من الحلول والاستقصاءات .

وليس غريبا ان تثار هذه القضية من جديد مع اكبر اصحاب الاسهامات الهامة فيها في حقل الاقصوصة المصرية وهو يحيى حقي ، الذي قدم في قصته المدهشة « الفراش الشاغر » اكمل طرح لقضية اللغة وأعظم اسهام في حلها .. اذ قدم في هذه القصة لاول مرة لغه قصصية من الطراز الاول ولغة عربية صافية من الطراز الاول في نفس الوقت .. أقول ليس غريبا ان تثار هذه القضية من جديد مع كتاب يحيى حقي الاخير « ناس في الظل » (٢) ولكنها تثار هنا بشكل جديد .. اذ يطرح هذا الكتاب الجديد قضيتين عامتين قبل القضايا الخاصة التي تثيرها مادة الكتاب وأسلوبه .. أول هاتين القضيتين تتبلور في السؤال التالي : من الذي يخدم

---

(١) لا تفوتنا هنا الاشارة الى الدراسات النقدية الهامة التي أعادت النظر في قطاعات واسعة من أدبنا القديم على ضوء المناهج النقدية الحديثة .. غير ان لنا قصة اخرى .

(٢) كتّاب الجمهورية ، القاهرة ، يوليو ١٩٧١ .

النثر العربي الآن ؟!.. كان من المفروض ان نبادر فورا عند طرح مثل هذا السؤال فنقول : كتّاب القصة القصيرة والرواية .. غير ان أغلب كتاب القصة القصيرة عندنا ، حتى الكبار منهم ، مصابون بما يمكن ان نسميه بالعنّة اللغوية . وهذه العنة اللغوية بالتحديد هي التي تقعد بالكثير من قصصهم الجيدة عن التحليق الى آفاق ابعد من العمق والانسانية وتتركها لصيقة الارض عاجزة عن اخصاب الذهن واستثارة الاحساس . ومن هنا لم تستطع القصة ان تخدم اللغة العربية في مجال النثر كثيرا وبقي الشعر يجاهد وحده في هذا المضمار . فقد نجاه التراث الطويل من النماذج الشعرية الاصيلة ومن الدراسات النقدية الضافية من الوقوع في هذا الشرك . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان احدث الدراسات النقدية عن الشعر لا تسقط ابدا الجانب اللغوي منه ، وترى بعضها ان الشاعر يخدم اللغة قبل ان يستخدمها . بينما يرى البعض الآخر انه يخدمها ويستخدمها معا .

ويحيى حقي مهموم في هذا الكتاب بأن يعيد الى النثر العربي دوره الهام في خدمة اللغة . طرح وراء ظهره فيود الشكل الفني للقصة القصيرة وان احتفظ بروحها . وتملص في الوقت نفسه من جفاف المقالة ونجريداتها دون ان يفقد وضوحها واسلوب افكارها . وانطلق مع تأملاته في الحياة والانسان يصوغها في لغة تجمع بين حرارة الفن ووضوح الفكر النظري . تتريث عند الكلمات وتنتقي منها ما هو على قد المعنى دون زيادة او نقصان . ولا غرو ، فيحيى حقي صاحب ابرز الدعوات الى اسلوب عربي جديد ، على التحديد ويعتمد على العين قبل الاذن ، ولا يغفل سلاسة اللغة العربية او ايقاعها . يستفيد من الكلمات العامية المثقلة بالايحاءات والمعاني ، الغنية بالتحديدات الحسية القادرة على ان تجسد بكلمة واحدة مثل « يلق » او « يهجّ » صورة نابضة بالحركة والحياة ، ينفض التراب عن سحر اللغة الفصحى وعن كنوزها الخبيئة .. فكتابة هذا « ناس في الظل » ينطوي على دروس باهرة في مقدرة اللغة العربية على الخلق والتجسيد ، دروس تتسم بالعفوية والتواضع ، وتنأى ـ استغفر الله ـ عن أي استعراض للعضلات . تضع يدها بحياء على السر دون ان تتيه عليك به ، فكأنه جاءها عفوا ودون قصد . لا تدل عليك بفضلها ، وهو عظيم ، تقدم لك صفحات البيان المشرق ببساطة وعلى استحياء . دون ان تقع في الرذيلة النفيض وهي الاسراف في التواضع . وليس هذا على يحيى حقي بجديد ، فكتابته كتابة تميزها من بين ألف كتابة اخرى حتى لو لم يوقعها كاتبها العظيم .. تتلاحق فيها الصفات المنتقاة بعناية وحساسية لتميز الشيء عن ألف شبيه له . لا تستطيع العين العادية ان تدرك هذا الفارق الطفيف ، ولكن هذا الفارق الطفيف المميز الدال هو أول ما تلتقطه عين يحيى حقي ، تخطفه خطفاً بيسر وعفوية ودون تعمل او اصطناع . تصف لك عينين في عدة اسطر فتميزهما عن آلاف العيون التي صادفتك : « ان الذي يستوقفني في هذا الوجه حقا هو عيناه .. مستديرتان هما ايضا ، كبيرتان واسعتان ، جاحظتان قليلا .. سوادهما كالفحم ، منه جاءت لمعة نظرته التي تتلألأ كالماس.. لم أر مثلهما عينين تنطقان بالفرح ، بالحبور .. بالجذل ، كأنه أبدا يكتم ضحكة تريد ان تنطلق .. تنطقان بالرضى عن النفس ، الرضى عن الحياة ، بالسعادة .. طعم الدنيا من فمهما لذيذ .. اشعاع هاتين العينين يغسل جسدي وروحي ، يفيض عليهما كماء صاف ، براق .. منعش لانه منتعش » . وتحس بقدرة العينين تحت ضربات قلم الفنان المقتدر الكبير بالافصاح عن كافة تفاصيل الشخصية وعن قدرة اللغة اذا ما وضعت في أيد خبيرة بارعة . ولا يعني هذا ان الكتاب تجربة في اللغة فحسب ، ولكنه الى جانب هذا تجربة في الحياة . وقبل ان ندلف الى عالم الكتاب علينا ان نتحدث عن القضية العامة الثانية التي يطرحها بعد قضية دور النثر العربي في خدمة اللغة وفي تنقيتها وتوسيع آفاقها .

واذا كانت القضية الاولى التي طرحها هذا الكتاب قضية فنية وجمالية فان القضية الثانية قضية عامة تنطلق من الطبيعة النوعية لهذا الكتاب لتشير الى شيء اكبر في واقعنا الثقافي . فالكتاب مجموعة من اليوميات التي يكتبها يحيى حقي بانتظام في صحيفة « المساء » كل اسبوع . ولدى يحيى حقي من هذه اليوميات كنز كبير ، يريد من يخلص له ويجمعه ويبوّبه . فلاكثر من عشر سنوات كتب يحيى حقي مقالة او مقالتين من هذا الطراز كل اسبوع . والقضية التي اريد ان اطرحها تبلور في هذا السؤال : متى تنتبه الدولة الى تكريم كتابنا الكبار ؟!.. لا تكريما سفيما بشهادة و « صرة » من النقود وكأنها في القرن العشرين تسير على نهج الخلفاء العباسيين وولاتهم في القرنين الثامن والتاسع ، ولكن تكريما يليق بالقرن الذي نحيا فيه . فتصدر أعماله الكاملة في طبعة علمية محققة ومنقحة ومبوبة تاريخيا . تكون مرجعا تاريخيا يساعد الباحث بل ويدعوه الى امعان النظر في الكثير من الاشياء الغائبة عنه . فمن يملك الطاقة من الباحثين الافراد الذين تستهلك لقمة العيش وقتهم وجلّ جهدهم ليجمع لنا مثلا مقالات طه حسين السياسية التي ملأ بها صفحات مختلف الجرائد طوال اكثر من عشرين عاما ؟.. من يجمع لنا هجائياته المقذعة لحزب الوفد ثم مدائحه المدهشة لنفس الحزب بعد ذلك بقليل ؟.. من يجمع لنا تجريحه انصاري لسعد زغلول ، مقالاته في صحف ناصبت بعضها العداء طوال سنين وسنين ؟.. هذا هو طه حسين الذي يجمع الكل على تقديره قدم للثقافة العربية اعظم الخدمات . كرمه الدولة بأسلوب الخلفاء العباسيين ، ولم تقدم له أبسط ما يطلبه منها ضمير العصر . طبعة كاملة محققة لكل ما كتب .. ناهيك عن اعداد ببليوغرافيا كاملة بكل كلمة كتبها وكل كلمة كتبت عنه .. بكل مقالة او كتاب ورد فيها اسمه بالخير او الشر ، فهذا ترف . متى تنتبه الدولة عندنا فتجمع هذه الكنوز لعشرات الكتاب ؟ لقد نشأ جيل جديد لا يعرف حقيقة كتّابه الكبار لانه لم يعاصرهم ، ولا يستطيع ان يعرف حقيقتهم ، وليس تحت يديه سوى ما ارادوا هم نشره عن انفسهم ، وهو اقل بكثير مما ارادوا اخفاءه في بعض الحالات .

أقول هذا بمناسبة صدور هذا الكتاب الهام ليحيى حقي « ناس في الظل » الذي يحتوي على أكثر من عشرين مقالة من يومياته التي نستطيع لو جمعت ان تخرج لنا في اكثر من عشرين كتابا من هذا الطراز . ويحيى حقي من الكتّاب الذين كرمتهم الدولة بالجائزة التقديرية ، ومع هذا فتراثه الادبي كالقطع النادر لا تستطيع العثور على أي منه .. يومياته المدهشة الفريدة مبعثرة في صفحات الصحف، تنتظر اليد التي تمتد اليها وتنفض عنها تراب النسيان . نحن الذين سنستفيد من هذه اليوميات أجلّ الفائدة . سنتعلم منها الكثير لان يوميات يحيى حقي قطع ادبية نادرة .. فقد أتى على نفسه منذ عهد اليه بكتابتها ان يقدم شيئا منفردا يتميز بطابع أدبي خالص . لا يسف من ملاحقة الاحداث الطارئة والمشكلات العامة الفاقعة .. كنقص الكبريت او انفجار ماسورة شبرا او ازدحام الشوارع بالمطبات كما يفعل كتّاب اليوميات الصحفية . ولكنه يجعل من اليوميات مدار تأملاته في الادب وفي اللغة وفي الانسان . يستعيض بها عن القصة القصيرة التي هجرها وعن النقد الادبي الذي تركه جانبا . يأتي اليها مسلحا ببصيرة القصصي القادرة على اكتشاف الجوهر خلف المظهر والثابت خلف العرضي ، وبتوقد الفنان الذي يبث في الاشياء الروح والحياة . وبوعي الناقد الذي يهب الاشياء أبعادها وأعماقها . وبوله العاشق المتيم في حب مصر المهموم بقضاياها

التاريخية والسياسية . ومن هنا اكتسبت هذه اليوميات اهمية فائقة . وكانت في حاجة الى من يجمعها ويعكف عليها حتى ستخرج منها الكثير .

وكتاب يحيى حقي « ناس في الظل » يضم مجموعة متجانسة من هذه اليوميات تدور حول اناس الظل بتنويعاتهم المختلفة ، وحول الآفاق البكر التي ما زالت في الظل ، وحول العوالم البكر التي لا بد ان تتحرك بعيدا عن الظل .. حول هذه المحاور المتجانسة الثلاثة تدور يوميات الكتاب ولوحاته ، فتقدم لنا صورة مترامية الاطراف لاناس الظل ، لهؤلاء الذين آثروا ان يكونوا مجرد ترس في آلة الحياة التي لا تتوقف عن الحركة .. لهؤلاء الذين اعطوا كل ما عندهم ولم تهبهم الحياة شيئا ، ولا حتى مجرد التفاتة صغيرة . هؤلاء الكومبارس في عرض الحياة الكبير هم شغل يحيى حقي الشاغل في هذا الكتاب ، لانهم هم الصناع الحقيقيون للحياة في حركتها الهادرة . فالعباقرة قد يأتون بالمعجزات ولكن الكومبارس وحدهم هم الذين تستمر بهم الحياة .. فيصوغون بذلك معجزة المعجزات .. معجزة الاستمرار العظيم . والكتاب كله كما يقول يحيى حقي في مقدمته « نابع من اهتمام فحنان للذين تراجعوا عن الاضواء . هكذا اراد لهم القدر او ارادوا هم لانفسهم . للملتحفين بالظل على المسرح وراء نجوم الفن ، في الغربة ، في الشيخوخة ، في قبضة الفقر ، في مكتب منزو كانه اصطبل حمار شغل ، وصف الكومبارس ينطبق عليهم جميعا في نظري ، رسمت في لوحات اناس منهم لاني احسست ان قلوبهم لا تسمهما المرارة ولا تضنيها الحسرة . رضوا بحظهم واستراحوا لانهم سلكوا انفسهم في نظام الكون وحدسوا حكمته . فلولا الظل لما كان نور ، ولولا الغربة لما كان وطن ، ولولا الشيخوخة لما كان شباب ، ولولا الفقر لما كان ثراء ، ولولا حمار الشغل لما تبختر الرهوان . فهم الشهادة والاستشهاد . يرتد عنهم البصر بسؤال يرتج له العقل . هل نكون جميعا مثلهم ؟ نقف وقفة الكومبارس من مسرحية ابطالها قوى خفية لا تدركها الاسماع او الابصار » .

هكذا يدرك يحيى حقي بحس الفنان العظيم البعد الحقيقي الكامن خلف الصورة الظاهرة ، حيث يرى ان في كل منا بعض ملامح هؤلاء الذين تراجعوا عن الاضواء وآثروا الالتحاق بالظل . واننا مهما تقدمنا الى مناطق الضوء فهناك درجة من درجات الظل تطوينا تحت جنحها . كما يلمس بعض الملامح الشديدة الخصوصية في هذه الصورة . حنين اناس الظل الى الاندغام في الكتلة البشرية الكبيرة . فالواحد منهم « مثل النحلة تموت اذا انفردت حتى وسط النعيم ، فهو لا يستطيع ان يعيش الا منمحيا وسط جماعة ، هي ـ فوق البيعة ـ متقهقرة .. باقية في الظل قابلة « الا تتقدم خطوة واحدة فتقف تحت الضوء . لا بد له ان يقف في صف .. بلتحم كتفاه بدرابزين طويل من اكتاف اخرى . يتقبل الضغط من يمين ويسار ويضغط هو أيضا على اليمين وعلى اليسار ، وتظل قدماه تنبشان الارض حتى تقهر قوة الطرد وتستقر به وقفته المقلقة في الحيز المرسوم له » (ص ١٠) . فبرغم هذا الحنين العارم الى الاندماج في الكتلة البشرية الكبيرة بحيث يبدو الواحد منهم وكأنه جزء من الكتلة الضخمة التي ينتمي اليها ، نجد لكل منهم شخصيته المتميزة وملامحه المتفردة .. ومن هنا نجد ان « ناس في الظل » في حقيقته معرض انماط بشرية لا ينفد . جياش بالحركة والتنوع .. مليء بالاصوات المتميزة والطبائع المتنوعة . فيهم من يرضى بان يكون مجرد سدخانة لا هوية له ولا تفرد ، لا حضور له الا بحضور الجماعة التي ينضوي تحت لوائها ، يغيب اذا غابت ولا يحس في حضورها بتفرده . فهو مجرد رقم بين رتل من الارقام المنطمسة المعالم . لا تميزه غير عين الفنان الخبير التي تلتقط التبر من بين آلاف الاحجار الفشيمة التي تشبهه اشد الشبه .

وفيهم من شدته اضواء القمة ولكنه آثر ظلا بعينه . لا اي ظل بل ظل بعينه . عن طبيعة ضنينة بالبذل مؤثرة للبقاء في الظل ، (في الظل) . وفيهم من رشحته كل امكانياته لذرى المجد لكنه آثر العزلة ، عن عفة في النفس لا عن مرض ، عزلته بنت رغبته في الذود عن كرامته في عالم مختل . مرفوض منه الى اقصى حد لا يملك حياله سوى ان يهج من بلده محموما زائغ البصر مرتعش اليد اصفر الوجه (وجه وصفعة) . وفيهم من وجد تحققه في رطوبة الظل وتحت ستره ، لو دفع الى الاضواء لتبعثر مع اول ما يدور تحت الاضواء من صنعه ومن توجيهه ، وهو يشبث بالظل ويدافع بضراوة عن مكانه فيه ، أشرس من أي عبقري في الدفاع عن عبقريته التي لا تتحقق الا في الظل . من يحاول ان ينال منه او يزيحه عن مكانه الاثير فعضته هي الغير . تعصف به عصفا ولا تذر . فهو الذي يصوغ كل ما تختال به الديوك المبرقشة في الصالونات الدبلوماسية (وراء الستار) . ومنهم ابن البلد الامين لتراث طويل من المهارات الحرفية ، تستثيره كلمة عابرة فتدفعه الى الانفلات بعيدا عن دولاب الآلة الضخمة التي الف ان يكون ترسا من تروسها ، ليثبت ان ابن البلد ليس أقل مهارة من الجركس او الاجنبي . بجترح ما يشبه المعجزة ، ثم ما يلبث ان يعود الى جلسته كالكاتب المصري امام قطع القماش الصغيرة يصنع منها خيمته بعد ان رد الاهانة او بالاحرى قبل التحدي وانتصر (انتصار ابن البلد) . وفيهم من دفعهم خطو الزمن الى ظل الحياة ، فدب وهن الشيخوخة الى أوصالهم .. بعضهم استنام الى دعتها يستروح في فيئها أطياف الذكريات (وداع) ، بينما حاول البعض الآخر ان يعزي النفس بالاندغام في الطبيعة والذوبان في طاقتها الباهرة على التجدد والانبات (هذه القبيلة) ، أما البعض الاخير فحاول ان يدفع عنه ثقل الشيخوخة بالانخراط في تيار الحياة يعب منها عبا وكانه لا يزال شابا في العشرين من العمر ، لا يقيم وزنا لـ (قوس العمر) وقد اشرف قاربه على المغيب والمفع بظلال الشفق التي تركت ندفها الثلجية فوق فروة الرأس وقد اشتعل شيبا . وفي (القصير هو أم طويل) يصبح الانسان الواقف في الظل هو الانسان عموما في هذا العصر العاصف . يحس بضآلة العمر والامكانيات ازاء تلك الغابة المترامية الاطراف من الاحداث والمعارف . يحس ان ما يفيض عليه منها لا يزيد عن حجم حبة رمل فوق شاطىء فسيح . هذا الانسان يحس بنفسه في ظل هذا الوجود الرحب قصير العمر قصير النفس ضئيل المعرفة .. شيخ أشيب متخم اذا قاس نفسه بانسان العالم القديم بمعرفته المحدودة وحياته الرتيبة .. وطفل رضيع جائع اذا ما تلفت حوله وشهد اصطخاب الاحداث والمعارف وتناميها السريع في عصرنا الحديث .

وهناك ايضا مجموعة كاملة من نساء الظل يقدمها لنا يحيى حقي في كيس واحد (رشح) يحتوي على كل النساء الطوافات على البيوت . يقرنهن بذكريات الطفولة ، فعالمهن ما زال طفلا لم يشب عن الطوق بعد .. هن برغم خروجهن الى ميدان العمل ما يزلن متوجسات هيابات . تغلبهن طبيعة المرأة غير العاملة قعيدة البيت وهي ترى العالم بعين رجلها ومن خلاله .. فيهن بائعة الجبن القروية التي تطخ المشوار سيرا على الاقدام من قريتها البعيدة الى المدينة . وفيهن بائعة الصابون بنت المدينة وقد اخنت عليها الدنيا وتركها الهجرة على ملامحها بصماتها . وفيهن الهبلة التي تجسد في بلاهتها الخائفة حزن المرأة وارهاقها . وهي تدب بعقل شارد ووجه مكدود ، تدور على البيوت تشحذ شيئا من الملابس القديمة لزوجها . وفيهن الحسود النحيلة المعصعصة الواقعة في قبضة لعنة أبدية تطاردها دون ان تستطيع منها انفلاتا ، المدانة دوما دونما ذنب او جريرة .. كل هذه الانماط البشرية يجسدها لنا يحيى حقي في لوحة واحدة هي (رشح) ، تنز بذكريات الطفولة وبهذه الانماط النسوية معا .

وهناك أيضا من القابعين في الظل نمط غريب يضعه يحيى حقي (في كيس واحد) مع ((ثقيل الدم ، والثرثار ، ومستودع النكت البايخه ، ومحب النكت القبيحة ، وهاوي التشكي لطلب الرثاء له . والبخيل النتن ، والمنلق الكذوب ، والجبان الحقير الذي يعدل عن الصدر ليطعن الظهر ، والمغرور المفتون بشخصه ، والمتعالم الذي لا يعلو حكم على حكمه ، والممرور الرافض لكل شيء على طول الخط والمعقداتي لكل سهل ، والرائي للقذى في عين اخيه دون القشة في والمهياص من غير زفة ، والمعاند بالباطـــل ضد الحق الواضح ، والمعقداتي لكل سهل ، والرائي للقذى في عين أخيه دون القشة في عينه ، والذي لم يتحقق فتمشدق)) (ص ٩٥) . وفي هـذا الكيس الذي ينوي القاءه في البحر على طـــول نضع ايضا ـ ليكون آخر البيعة ـ نمطا غريبا من الناس ، انقلبت عنده احدى النعم الى نقيصة وبلوى . وأعني به صاحب الذاكرة القوية الباقية على عماهـــا ، لا تفرق بين التوافه التي يجب اسقاطها والنافع الذي يجب اختزانه. فازدحمت بلا فائدة منه كمخزن خرب لا يستطيع صاحبه له تنظيما او ترتيبا . فتكدست فيه الأشياء حتى حجبت الاشياء النافعة وتوارت. وهناك أجزاء الظل في حياة المشاهير من الناس يقدمها لنا يحيى حقي بحساسية تكشف ما يدور في تلك المناطق الخبيئة البعيدة عـــن الضوء .. وهو يتحدث عن عبده الحامولي من زاوية جديدة الـى أقصى حد ، لا نخطر على بال غير ذلك الفنان الكبير الذي خبر الحياة والناس وامتدت بصيرته الى اغوار الاشياء فيكشف لنـا توق عبـده الحامولي العارم الى صعود درجة من درجات السلم الاجتمـاعي في (١٢ مايو ١٩٠١) وكيف انعكس هذا التوق على حياتـه مـع الخط فكاد ان ينفصها .

واذا اكتفينا بهذا القدر من تنويعات يحيى حقي على اناس الظل وحاولنا أن نتعرف على تنوعاته على الآفاق البكر التي ما زالت في الظل سنجد نفس الثراء ، ونفس الحس المرهف في التقاط الآفاق المتميزة التي غفلت عنها عشرات الاعين وتركتها سادرة في الظل . لم يقدمها كاتب من قبل الى رفعة الضوء . ولم يكشف بعض الذين حوموا بالقرب منها تلك الزاوية الهامة في النظر اليها .. الزاويـة التي تفيض بالحب وبالفهم وبالخبرة العميقة بالموضوع . وأول هذه الآفاق التي يقدمها يحيى حقي هو عـــالم الحب التحتي ان جـاز التعبير .. حيث يجيش بانفعالات متميزة من الحب لم يتح لها مـن يريق عليها ضوء الفهم والتعبير .. ففـي (خبر) .. يكشف لنـا يحيى حقي خلف الخبر البسيط الذي لم يحتل من صفحة الحوادث غير سطور معدودات عالـما من الحب التحتي .. يفيض بانفعالات تفوق تلك التي تنبض بها قصة ((روميو وجولييت)) ، تترك تفاصيل هذا العالم التحتي عليه ظلالها . كل تفاصيلـــه تنطق بأنه حب مهيض منسحق تحت وطأة الفقر ، تحلق فيه العاطفـــة المشبوبة الى ذروة الذرى وأصحابها يئنون تحت كلاكل الفقر الثقيلة ((لا هو ولا هي قرأ قصة روميو وجولييت او سمع بها . هذا هو حب الاكابر المترفيـن في القصور . وكان لا بد ان تكتب للفقراء قصة حب تماثلها . وكل قصص الفقراء لا تكون بالتأليف بل بالفعل ، ثم تكون أجدر الروائع بالذكر)) (ص ٣٩) ..

في (خبر) يكتب يحيى حقي قصة حب الفقراء . فقد سئم طول تسكع الادب على ابواب الاغنياء يكتب قصصهم ويسجل عواطفهم. يكتبها بعد ان كتبها الفقراء انفسهم بالفعل قبل الكلمات ، فيقتحم لنا بقلمه عالما مدهشا من الحب الذي يولد على الارصفة ، ابن التماثل في الانسحاق تحت وطأة الحياة . ((والسقوط من قعر القفة والرق في صورته الحديثة .. خدمة البيوت .. هو حب بين اسيريـــن مربوطين في سلسلة واحدة . لهفتهما على الحب هي لهفة عـــلى الحرية . هي كل ما يملكانه من احتجاج على قسوة القدر)) (ص٣٧)

هذا الحب الذي ارتفع الى مرتبة العشق والذهول عن الناس والاكتفاء بالذات هو الذي هوى بهما العاشق والمعشوقة العاشقه .. الطبـاخ والخادمة .. الى حضيض العنف الجسدي .. حينمـا انكشف سر الفتاة وأيقنت انها الفضيحة ، صبت على نفسها البترول ، وأشعلت في جسدها النار .. هنا يدلف يحيى حقي من تلك اللحظة الشديدة الخصوصية الى شيء عام فيقول : ((هؤلاء البنـــات لا ينتحرن الا بطريقتين : بالقفز من النافذة في حالة الهيـــاج الفظيع ، او بحرق الجسد في حالة الفم الشديد . حين تكره البنت كل ما في الحياة وأول شيء فيها جســـدها هي . او حالة العذاب النفسي الـــذي لا يطاق يهون بجانبه عذاب النار)) (ص ٣٨) . هنا يمزج يحيى حقي بين طبيعة الفتاة وثقافتها وأسلوبها في الحياة وطريقتها في التخلص منها معا . ويلمس في نفس الوقت صدى هذا الاسلوب العنيف في اغواء عشيقها الذي انتحر هو الآخر بطريقـــة تنطق بنفس العنف الجسدي . فحينمـا ركوب النفس الى الفطرة ، ونحل الافعـال مكان الاقوال ، نعود من جديد الى ذلك العنف الوحشي الذي يختفـي خلف قشرة الحضارة بأقراصها المنومة وشرابينها المسفوحة الـــدم وغير ذلك من الوسائل العصرية للانتحار .

بعد عالم الحب التحتي الذي طالما توارى في الظل يجوس بنـا يحيى حقي أفقا جديدا يتوارى في الظل برغم وقوعه كل يوم تحـت الاعين على الارصفة في الشوارع وبين المقاعد في المقاهي .. عـالم اليانصيب باعته ومشتريه .. ذلك العالم الغريب الذي يضم مجموعة مـن الحالمين دائما بثروة تهبط عليهم من السماء يشترون الحلم الكبير بباخس الاثمان . بقرش او بقرشين تربح مئات الجنيهات فتجهز على الفقر الكئيب وتبلغ المنى . وكثير من هؤلاء يقربون الحلم بحياء .. يسوغه لهم المشرفون عليه بنوع من النفاق اللذيذ حينما يقرنـــون اليانصيب بأسماء الجمعيات الخيرية . نوع من جر الرجل حتـــى تسوخ في رمال الاحلام الناعمة . ويكشف لنا يحيى حقي خبايا هذا العالم الغريب من خلال التناقض الصارخ الذي ينهض عليه دعـــائم هذا العالم . فها هو فقير معدم رث الثياب متسخ السحنة يدعـــي انه يهب الثروة لغيره .. يمد يده يعرض على المارة لقاء قرش واحد وعودا بثراء يهبط من السماء كالرحمة . يزج بهم في مغامرة يخوضونها وهم قعود غارقون في الكسل الذي يقلب الغين فافا فتصبح المغامرة مجرد مقامرة ، الخسارة فيها هينة اما الربح اذا أقبل فوفير . زبائن هذا الفقير المعدم الذي يصفر حتى تجده حدثا صغيرا يتعثر في خطاه ويهرم حتى تجده عجوزا يتوكأ على عصاه ، لهم صور عديدة . ولكن كل واحد منهم نمط فذ بين الناس وان تساووا جميعا في الايمـان برب واحد اسمه الصدفة . بعضهم يشتري الورقة تخلصا من الحاح صبي ، وآخر يتخذ من شرائها سبيلا لمداعبة أنوثة البائعة المليحة ، ينحدر منها الى ما بعدها ، وثالث ينتمي الى مجموعة الهواة القرارية، الزبائن المدمنين ، الواقف بالساعات يتأمل الارقام ليختار من بينها رقما يبشر بالربح ، ومن يشتري مائة ورقة مرة واحدة ، كلمـــة (سيري) الفرنسية يجـري بهـا لسانـــه وان لـــم يتكلـم هـــذه اللغة)) (ص ٨٥) .

عالم آخر من العوالم التي لا تزال في الظل برغم طول التحويم حولها يجوس بنا يحيى حقي في فيافيه البكر في لوحتين متعاقبتين (ناس وناس) و (الى متى يظل هذا الانسان لغزا ؟) حيث يقدم لنا صورة عالم ظالما توارى في الظل .. صورة الفلاح وعالمه الذي ترقى فيه الاشياء الى مرتبة الطقوس .. لا يعرضها وحدها ولكن من خلال منهج يعتمد على المقابلة في ابراز تفاصيل الصورة من خلال النقيض، فها هو الفلاح يواجه أهل البندر فيسلب لب الصغير وتبهره طريقته في شرب الماء ، في الحديث ، في الاكل ، في النظر الى الاشياء . ويقدم لنا الفنان صورة هذا العالم البعيد عن الضوء في مقابلتها مع

عالم المدينة من جهة وفي انعكاسها على حدقة طفل صغير من جهة ثانية فتبلور الحيلتين أدق تفاصيل الصورة . حتى تستطيع ان تنطلق بعدما حفرها في الاذهان ليطرح سؤاله الهام .. الى مى يظل هذا الانسان لغزا ؟!.. لا يتغلغل الفن الى أغواره ، ولا يكشف لنا الادب عن جوهره .. فيسجل لنا مهارة فنانين كبيرين على بعرية روحه ، ويكشف لنا في نفس الوقت عن حس تذوقي رفيع « أستطيع ان اشهد ان صلتي الروحية بالفلاح ـ الروحية لا الذهنية ـ ولدت على يد سيد درويش ومحمود مختار . لانهما لم يقتصرا على الوصف الساذج او التهويل المفرط . ففي اعمالهما شحنة هائلة من التعبير الدرامي الشاعري . سيد درويش رفع نهنهة الفلاح في ضعفه الى بحة محروقة صادرة عن قلب يغالب القدر بشجاعة . ومختار كشف لنا بجمال تماثيله عن الصخرة الصلدة التي لم تتكسر رغم الضربات المنهالة عليها » (ص ٥١) .. واذا كانت الموسيقى والنحت والرسم في لوحات تاجي استطاعت ان تقترب من روح الفلاح فان الادب لم يتمكن من ذلك بنفس التوفيق والعمق ، اذ بقي الفلاح فيه « كالشبح المبهم ، كالقضية النظرية المسلم بها تغني فيها الرواية عن المعاينة . رأيناه مشكلة كامنة في المجتمع ، ولكن لم نره انسانا من لحم ودم . ندخل الى عقله وقلبه وتفهم عواطفه وآراءه » (ص ٥٢) . هوت به الكتب الى حضيض الاشرار خسة ولؤما أو رفعته الى مصاف الملائكة الابرار دون ان تقدم جوهره . لا قبل الثورة ولا حتى بعدها . وربما كان هذا الحنين الى لقاء صورة الفلاح الحقيقية على الورق هو سر اعجاب يحيي حقي برواية عبد الحكيم قاسم (ايام الانسان السبعة) حيث قدمت فلاح اللحم والدم ، ودخلت بنا الى عقله وقلبه واحتضنت أفكاره ورؤاه وعواطفه . فيحيى حقي يهتم أشد الاهتمام في أي عمل فني نقرأه بمدى عمق خبرة كاتبه بموضوعه وبالبعد الانساني والروحي خلف الغلالة الخارجية والمظهر العرضي .

ننتقل بعد هذا الى العوالم البكر التي يريق عليها يحيى حقي الضوء داعيا الى ضرورة ان تتحرك بعيدا عن الظل . فقد آن لنا ان نلتفت اليها وان نتعرف على اسرارها ، فقد اصبح كل عالم منها ميدان درس وتمحيص في بقاع أخرى من الارض . بينما لا تزال هذه العوالم عندنا غارقة في الظل ، تنبه لها المستشرقون من الاجانب ونحن لا نعرف عنها شيئا .. من هذه العوالم الغارقة في الظل عالم الباعة الجائلين ، ليس باعتبارهم أصحاب مشكلة ، لا بد ان تساهم البلدية في حلها ، ولكن باعتبارهم فنانين خلاقين لكن من طراز فريد ، يتوارثونه على مر الاجيال .. فن النداء على خضروات مصر وفواكهها الاصيلة ، فنداءات الباعة عنده في (لا تين .. ولا عنب زبن) لها وقع خاص وطعم فريد . انها ليست مجرد فن مهضوم الحق والاهتمام ، يتوارثه مجموعة من آناس الظل الذين يساهمون في صنع معجزة الاستمرار دون ان يلتفت اليهم أحد . ليست فنا منقوشا بازميل فوق حجر نقش الوصايا العشر على النار في الوادي المقدس طوى .. ولكنها ، وهذا هو الاهم ، لوحة التمجيد العربضة لنباتات مصر الاصيلة ، لوحة مستمرة خالدة لا ينال منها الزمان « خمسون سنة واكثر تمضي فيتغير على مرها وجه المدينة وملامح المجتمع ، حتى كان الارض غير الارض والناس غير الناس . وهذا النداء هو هو ، باق خالد ، كانما انفلت من قبضة الزمان والاحداث . لمس لحنه ونغمته فحسب بل واكاد اقول صوت البائع ايضا ، الحنجرة وحبال الصوت هي هي لم تتغير » (ص ٦٠) .

فالانسان في مصر لا يرث المهنة والفن ولكنه يرث ايضا أقدار ابويه ، فنحن نعيش في مجتمع على درجة كبيرة من الاستقرار والاستاتيكية .. ربما لو دققنا البحث لوجدنا ان هذا البائع بنحدر من سلالة طويلة من البائعين ..

هذه اللوحة المستمرة الخالدة ، لا تخلد اي شيء كيفما اتفق ، ولكنها تخلد فحسب ، نباتات مصر الاصيلة وفواكهها بعددها يحيى حقي ببراعة ثم يقول : « أرجو ان تلحظ معي ثم تقول لي هل انا مخطيء أم مصيب اذ انبهك ان هذه هي خضروات مصر وفاكهتها الاصيلة لكل منها نداء خالد . اما المستحدثة منها كالبطاطس والبسلة ، كالجوافة والمانغو والفراولة ، فانها لم تجد لها رغم تجاوزها لسن الرشد بكثير ، هذا الملحن العبقري المجهول الذي يسلكها مع الخالدين . فنداء البائع لها وسط بقية النداءات الاصيلة الموارثة أشبه شيء بصفحة مكتوبة بأسلوب منظمس تقريري وسط كتاب يتلألأ باسلوب فني يصافح الشعر » (ص ٦١) .. انه فن مبصر ، لا يضرب كالاعمى كيفما اتفق ، ولكنه يسجل في وعي نادر صفحة منسية من تاريخ مصر .. والصفحات المنسية في تاريخ مصر كثيرة .. تقدم لنا (انتصار ابن البلد) واحدة منها ما زالت تلتحف الظل وعلينا ان نتحرك نحوها قبل فوات الاوان .. وتقدم لنا هذه الصفحة بقايا عالم الحرفيين القديم الموشك على الفرق .. يشد معه الى القاع تقاليد قديمة لها طعم الفطرة البكر . حيث كان لكل مهنة شيخ يشرب الصبيان على يده الصنعة ، ولا يسمح لاي منهم بالاستقلال بعمله قبل ان يشهد له شيخ الصنعة بالتمكن من أصولها .. حتى لا يختلط الحابل بالنابل ، ويجد الافاقون والمدعون الفرصة سانحة للاختلاط بأصحاب المهنة الأصلاء ، والاحتيال على الناس وتبديد مصالحهم .. وقد كانت تقاليد هذا النظام العتيق تنطوي على قدر كبير من الامانة للمهنة والحرص على سمعة العاملين بها . بصورة تدفع كل فرد من ابنائها الى الاحساس بكيانه والاعتزاز بمهنته « اعتزاز الاسرة بالطائفة التي تنتمي اليها ، وبالحي الذي تتجمع فيه يتبين في حفظها عن ظهر قلب وعدها على الاصابع لاسماء بقية الطوائف الاصولية ، من أول النحاسين حتى المغربلين مرورا بالكحكيين لكل طائفة تقاليد وشيخ وعربة في الموكب ليلة الرؤيا . كل من خرج منها يعد من السريحة من النطاطين او الشطار ، أدناهم من ينصب على الناس كالحواة . ومن يبيع خجله ليشتري به لقمته وهدمته ، كالهرج المسخة العياذ بالله ، الشر بره وبعيد » (ص ٩٩) .

ومن العوالم البكر التي لا بد لها ان تتحرك بعيدا عن الظل هذا العالم الذي يقدمه يحيى حقي في لوحته (كيف كان يعيش الناس) حيث يريق الضوء على اوراق الانسان العادي ومذكرات الواقفين ابدا في الظل . فاذا كانت مذكرات المشهورين من الناس ذات دلالة فانها في الوقت نفسه ذات طعم تجريدي .. اما مذكرات البشر العاديين فان لها طعم فريد .. طعم الحياة في وضاءتها وطزاجتها .. في تدفقها وعرامتها .. بعيدا عن الجمل المتحفظة والافكار « المستفة » يكتب الرجل العادي مذكراته ، فهو يكتبها لنفسه ، لا يبغي عرضها ـ مزهوا ـ على الآخرين . بجد في كتابتها لذة استعادة الحياة التي عاشها خطفا على مهل وفي كن من وحدة الذات وبعيدا عن الآخرين يضع حياته على الورق .. ربما ليعود اليها حتى يتذكر منها شيئا ، لكن هيهات . من هذه المذكرات تعرف عن الحياة اكثر مما تعرف عن مذكرات المشاهير الذين يتصورون ان عليهم دائما ان يرتفعوا فوق هذه الصغائر .. فهي سجل الايام الماضيات . منها وحدها تعرف كيف كان يعيش الناس ، ماذا كانوا يأكلون .. وماذا ينفقون .. الاسعار والاماكن المشهورة والتقاليد بكمالها وتمامها موصوفة عندهم بدقة متناهية . الصبوات والاحلام تعرفها هي الاخرى من طريقة كتابتهم عن الوقائع والاحداث ، فليس لديهم من المكر ما يخفون به اللهفة قبل ان تنفلت من سن القلم .. هنا ينبهنا يحيى حقي الى مجال آخر من مجالات الظل البكر التي لم يقتحمها قلم من قبل .

فمن أكبر الانتصارات التي تعتز بها دور النشر في الغرب ـ وبخاصة في انكلترا ـ عثورها في قعر صندوق مترب مضت عليه اجيال لدى أسرة ، وهو منسي في مخزن الكراكيب تحت حنية السقف ، على مذكرات كتبها رجل مغمور من اوساط الناس لا شان له بالسياسة او الفلسفة او النقد الادبي ، وانما جعل كل همه يوما بعد يوم ان يسجل فيها مشترياته من السوق وحوادث الحي والجيران والاشاعات الرائجة وانباء القضايا المثيرة ووصفه لامسياته في الحانات

والملاهي » (ص ٦٤) . فمن هذه المذكرات المغمورة لا يشم النـاس رائحة الماضي فحسب ، بل ينهض الماضي امامهم من خلالها مجسما. يحسون به ويعرفونه معا . وهذا بالفعـــل ما نحسه ازاء النماذج الرائدة التي يقدمها يحيى حقي في هذا المضمار . سواء في مذكرات البقال الرومي التي تفوح منها رائحـــة زمان ، او في مذكرات ذلك العصامي المولود عام ١٨٧١ والتي جعل عنوانها (حياتي) .. من هذه النماذج التي قدمها يحيى حقي في كتابه نحس لا بطعم الماضي ورائحته فحسب ، بل وحتى باللغة الاثيرة لديهم ، وبالقيم التي تحتل مكانا بارزا في سلم القيم الاجتماعي في هذا العصر . وعلى ذكر اللغـــة ننتقل الى آخر المجالات البكر التي حاول يحيى حقي ان يتحرك بها بعيدا عن الظل .. حيث دعا في (لغة ملاية لف) الى الاهتمـــام بدراسة تلك اللغة التي بقيت دائما في الظل والى التريث عندهـــا والتعرف على سحرها وتنوعها وتأبيها على التجريد معا . فاللغـــة العامية لغة حياة .. لبست مجرد وعاء للتعبير ولكنها فعالية مشاركة في صياغة هذه الحياة .. تتبادل معها التأثر والتأثير .. فهي لغـة التفكير قبل ان تكون لغة التعبير .. لغة الصورة الحسية قبـل ان تكون لغة التجريد ، تنطوي في تنوع صورها وتعددها وفي جفافهـا وتفردها على موقف مدعيها من الحياة .

فليس صدفة ان « قاموسها ليس به عن الصفح والعفو الا عبارة واحدة . اما عن اضمام الضغينة والصبر على طلب الثار واعـــداد العدة له فقد خصصت له عدة صفحات . ما السر في هذا الشح في الخير والاسراف في الشر ؟ قد يكون السبب ان الكلمة الحلوة ، لانها كريمة شريفة ، لا تحب التلون او الثرثرة » (ص ١٢٢) . وقد يكون السبب ايضا ، وهذا تعليل اكثر مرارة من تعليل يحيى حقي المتسم بالطيبة والمسامحة ، ان طبيعة الحياة في الشعب المصري مليئـــة بالقهر والاحباط . فاللغة العامية التي يصوغها الشعب بعيدا عـــن رقابة المولعين بالتجريدات لا تعرف في قاموسها عن العفو والصفـح سوى « المسامح كريم » ، بينما خصصت للشر عشرات التعبيرات ، منهـــا (ناوي له) و (مستحلف له) و (راقـــد له عليهـــا) و (شايلها له) و (محـــــوشها له) و (حاططها تحت ضرسه) و (مدكنها له) ، وخصصت للانتقام المؤجل (فاحت له) و (مسرسب له) و (مخليه على عماه) و (ماسك له ابنه) و (انا وانت والزمن طويل) .. الى غير ذلك من التعبيرات . هذه اللغة تحمل فـــي تعبيراتها بصمات التراث من الظلم والقهر الذي عانى منه الشعـــب المصري ، وتفننه في التعبير عن توقه الى الانتقام من الفرماء . حتى في كلمة الصفح الوحيدة نحس بوطأة الظلم والعجز عن اخذ الحق ، وقد تسربلت بوشاح من كرم المسامحة وكأنه يقول بيدي لا بيد عمرو ! الى هذه اللغة التي تنطوي تعبيراتها لا على كنز من الصور الحسية المتوهجة بالحركة فحسب ، ولكن على كنز من السمات النفسيـــة الاصيلة للشعب المصري ومن التواريخ القديمة له .. الى هذه اللغة ينبهنا يحيى حقي وهو من عشاقها الكبار ، ومن اكثر الباحثين عن تعبيراتها الدالة وكلماتها الموحية .. يستعملها في كتاباته فتتعجب لهذه الكلمات الهامدة التي مرت عليك من قبل عشرات المرات دون ان تحسب بطاقتها الهائلة على التعبير والايحاء .

عن عالم الظل هذا ، بأناسه وآفاقه البكر وعوالمه المشوقـــة للضوء يدور كتاب يحيى حقي (ناس في الظل) ، بلوحاته التي ترتفع في بعض الاحيان الى مستوى القصص القصيرة الناضجة .. ففي الكتاب لوحات تكاد تكون قصصا مكتملة مثل (كيسه) و (مخلوق غريب) و (خبر) ، في هذه اللوحات الثلاثة لا تقترب يحيى حقي من روح الاقصوصة فحسب ولكن ايضا من شكلها .. فكل منها قصة متكاملة الموقف والشخصية .. في (كيسه) يريق الفنان الضـــوء على اعماق الشخصيات من خلال موقف شديد التركيز . يكشف عن سريرة شخصياتها الاربع : الزوج والزوجة والفني وقريبه الفقير .. ولولا نمطية شخصيتي الزوج والزوجة التي تقدم القصة من خلالهما لارتفعت هذه اللوحة الى مستوى قصص يحيى حقي الناضجـــة . ففيها بصيرة عميقة بالانسان وخبره فائقة بالموقف الذي تعالجه .. اما (مخلوق عجيب) فهي بالفعل قصة كاملة .. تقدم لنا ـ كمـــا يطلب كونراد ـ احد افراد جماعة مغمورة هي جماعة العزاب الساهين عن انفسهم ، من خلال وعي حاد بالتفرد الانساني لابن هذه الجماعة ، وهو يستيقظ فجأة تدفق الحياة في كيان صبي صغيـر اقتحم عليه عالمه الموحش ، وفجر في داخله ينابيع الحياة التي نبضت تحت وطأة الوحدة والدوران حول الذات واستهلاك الحياة دون استيلاد حياة او الحدب على الحياة . اما (خبر) فانها قصة حب من ارفع طراز تصف بدقة متناهية صفاء هذه العاطفة ونقائها وهي تربط طبـــاخ بخادمة .. هي قصة « روميو وجولييت » الفقراء كما تحدثنا عنهـا من قبـــل .

ولا يكتفي الكتاب بهذا .. ففيه معاقرة صافية للموسيقى .. ففي (في الظل) حديث خبير عن الموسيقى .. تتحول فيه الموسيقى الى حس خالص .. تفعل في النفس فعل السحر ، فتكاد تسمـــع وهو يصف لك موسيقى زكريا احمد او رياض السنباطي صـــوت الموسيقى يتدفق في اذنيك ، ينبض تحت جلد الكلمات ، يعلو حتى يحاق ، وينخفض حتى يخفت وتتحسس الآذان صداه . لا تسمـــع موسيقى الانغام وحدها ، بل موسيقى الكلمات التي تلقى على النغمة الضوء ، تتذوقها وتكشف عن أصولها . فيحيى حقي مرهف الاحساس بالموسيقى ، له كتاب بأكمله ـ (تعالى معي الى الكونسير) ـ عـن خفاياها وآداب الاستماع اليها ، يتحدث عنها حديث العاشق الخبير. نحس بخبرته وهو يقارن بين موسيقى زكريا احمد والسنبـــاطي والقصبجي .. وينتصر لموسيقى القصبجي في لحنه الشهير « ان كنت أسامح » .. ونحس بخبرته وهو يتحدث في (وداع) عن عاشـــق الموسيقى الذي دبت الشيخوخة في اوصاله ، حديث مدهش اندغمت فيه موسيقى النغم في موسيقى الروح فصارت شيئا واحدا .

وعنى الكتاب بالنماذج والموضوعات قمين بعنـــاه بالكشـوف والاضافات الفنية .. فبرغم انه كتاب بوميات يطغى عليه العنصر التأملي والفكري فانه اقرب الى العمل الفني اسلوبا وروحا .. يثير كل قضاياه من خلال التجسيد الحسي .. ولا غرو .. فيحيى حقي فنـان ، وليس كالفنان ابدا عزوفا عن تصديع رأس القارىء بالتحليلات الفكرية الجافة. فالفكر عنده ليس هيكلا عظميا يدب على قدمين ولكنه مخلوق حي مجسم قادر على المشي والجري والقفز والانطلاق في معمعان الحياة . فهو حين يريد ان يقول لك عـن الصحافـة التي تقرأها .. صحافـة مـن ؟ .. تحمي وتخدم من يهتم بالسياسة ومن يعزف عليها . فمن خلال لقطـة حيـة متناهيـة الصغر يضع الفنان في (خيار وفاقوس) كل النقط على الحروف .. ويقدم ما هـو اغنى بكثير من مجرد تعليق او تحليل فكري .. لانه تعليق وتحليل انساني . يعرض للاسلوب الذي نتناول به الصحافـة من يجرم عليه القوم ومن يحظى من العامة ، فانت ترى ان ملطمه علية القوم من وجهاء الوظائف والثقافة والمركز الاجتماعي . تنشر مع تكتم الاسمـاء والعناوين ، حمابة لهم من الفضيحة . امـا الفضيحـة ام جلاجل فمن نصيب المقطوعين من شجرة . من نصيب الفقراء والبسطاء من عامة الشعب كأن ليس لهم كرامة تستحـق ان تصـان ، (ص ٤٢) .

فهـو عندمـا يتحدث عن ظاهرة عامة او يريد ان يخرج لفكره لها طابع كلي لا يلجأ الى التعميمـات والتجريدات . وانما يجسدها مـن خلال صورة موغلة في التفرد والحسية . فالفردي والحسي هما طريق الى العام المجرد . وحينمـا يرغب في ان يلقى لـك بمقولة خالصـة فانه يلجأ الى حيلة ماكرة .. فوسط نشوة حسية يأخذك على جناحيها حتى لا تستطيع ان تعصى له امرا .. وسط تدله في هوى شيىء بطـل يعد لك فضائله ويجسد لـك مزاياه حتى لتكاد تمد يـدك من بيـن السطور فتلمسه لمسا . وسط هذا الجويدس لـك ـ بين قوسين ـ الحقيقـة النقيض من جملة اعتراضية خاطفة . وكأنه يضمنك ضدها .

المطر الأول

الحلم غزالٌ يرتاد تخوم الصحراء ..
والحزن سماء ..
هدأت عاصفة البحر ومقهى الريح ..
على كل الطرقات
يرجف والخوف نوارس مسحوره ..
أتصيّدها فتسيل على وجهي الشرفاتُ
وتغني الكأس المكسوره ..
هدأت عاصفة البحر
ووجهي في كفّ الريحْ ..

* * *

كنا نقرأ بوشكين ..
كان قطاراً يرحل صوب الشرق
والاشجار ..
تركض عائدة نحو البيت ..
لم نسأل عن اسمينا ..
كنا في النافذة المكسورة وجهين
حين بدأت تغني
انهمرت أمطار الرؤيا
وعرفتك حزنا أخضر يورق في الغابات
وحنينا بلّله المطر الاول
ورأيت الوجه العائد في النافذة المكوره
نصفين ..
حين انتهت الاغنية ، أدركت
ان على الارض سماء أخرى
حدّثت الاغنية عنها ..
فاحترق المزمار
« يا أعذب جرح في صدري
يا نبعا من نار .. »

* * *

كنا نقرأ بوشكين ..
وبقايا الصيف الراحل فوق ذرى الأشجار
حلم أو نار ..
والذهب الشاحب يخفق
في وجه الاسحار ..
اذكر لا اذكر
الا ريش الكروان الاحمر ..
رفّ على كف الحلم
وطار ..

* * *

كنا نقرأ بوشكين
كان قطاراً أتعبه الشوق
يرحل صوب الشرق ..
والاشجار ..
تركض عائدة نحو البيت
ونسيت ..
أذكر ..
لا أذكر الا بوشكين
والحلم الخائف في
وجه ..
الانسان

الموصل (العراق)

ارشد توفيق

وكانه يعي انه لا تملك ان تعارضها ، يدسها في جملة اعتراضية خاطفة وكانه بذلك يهون لك من شانها ، او كانها بديهية لا تستاهل حتى ان يضعها في قلب السباق . طوبه في الطريق ، يزيحها بقدمه ويمضي فلا داعي لان تتعثر فيها حتى تدرك سخفها وسماجتها . ففي سياق حديث طويل عن موسيقى زكريا احمد يستمر في وصف موسيقاه « لا يفرنك ابتداؤه بطبقة واطئة تخشى معها ان تلزم الارض ، انه سيرفع النغمة بعد قليل الى اعلى الطبقات فيتيح للصوت ان يكشف كل قدراته. حينئذ نخلق معه في السماء حتى تكاد قلوبنا تثب الى افواهنا من شدة النشوة (جميع اغانينا اليوم تلتزم الطبقات الارضية بلا تحليق) اذن لا بد من شيء من الراحة .. هذا هو الهنك والدنك يجيده زكريا ايضا .. التمايل معه يا حبيبي على الجنبين كاننا في حلقة ذكر الحان زكريا منبعثة من العاطفة والعلم والصنعة من تعاون حميد فلا غلبة لواحد منهاعلى غيره » (ص ١٥) وسط هذا الحديث يضع يحيى حقيقة خطيرة ولكن بطريقة ماكرة . فيها من حنكة الفنان وحساسيته الكثير « جميع اغانينا اليوم تلزم الطبقات الارضية بلا تحليق » حقيقة تمر بها وكانها بديهية .. وهذه الحيلة الماكرة تتكرر اكثر من مرة من الكتاب .. يقول في مستهل (يانصيب) « لا بد ان اجعل بدء كلا من استثاره تعجبك واستعبارك بمنظر هذا الرجل المنسق داخل جلبابه الرث .. فقد شبعنا من الاستعار الفارغ للمفارقات البينة ، للحكم السهل ومصمصة الشفاه ، الارض المطروقة ، عبرتها قبل قدمك آلاف الاقدام (لا يزال في ادبنا وبخاصة في شعرنا .. كثير من البريق الكاذب لمثل هذا اللت والعجن) » .. هذه حقيقة خطيرة اخرى يقدمها يحيى حقي لنا بنفس البساطة وبنفس المنهج .. وفي الكتاب من هذا النمط الكثير فيحيى حقي ولوج بالجمل الاعتراضية.. وهذا الولع في اعتقادي ابن التصاقه الحميم بالروح المصرية وباسلوبها الفريد في التعبير والتفكير .. وابن اهتمامه المتزايد باسرار اللغتين العامية والفصحى وفي الكتاب كنوز منها .. فهو كتاب ادبي من طراز فريد . يخدم النثر العربي ويحتفي باللغة العربية اجل احتفاء . يحقق فيه يحيى حقي دعوته الى التحديد اللفوي والى الحتمية اللغوية . ليس فيه شيء الا وموصوف باكثر من صفة تميزه عن عشرات الاشياء المشابهة . وتتواتر الصفات في بعض الاحيان حتى تبلغ السبع صفات او تزيد « رجل مماطل ، مخادع ، مراوغ ، مكبر ، غويط ، دحلاب ، ساه تحته دواه ، امي ولكنه في ترتيب الاشكالات القانونية ابرع من محام امام محكمة النقض » لا نظن ان هذه ترادفات يمكن ان تغني احداها عن الاخرى ، فلكل صفة دورها ومساهمتها في تحديد ادق تفاصيل الصورة . وفي بعض الاحيان تبلغ صفحات الوصف فيه حد الاعجاز . فهو يصف في اكثر من صفحة كاملة (ص ٧٤) فتحس وانت تقراه بانك امام ضرب من ضروب الاعجاز في اللغة والخبرة والملاحظة وهذه السمات الثلاثة ، الخبرة العميقة بالموضوع والملاحظة الدقيقة الحساسة له واللغة التي تصافح الشعر ، هي سمات هذا الكتاب الاصيلة ، بها ومن خلالها قدم لنا الفنان عالما كاملا يعيش في الظل ... كل شيء فيه عليه مسحة من هذا الظل ..حتى الاماكن التي يكثر ذكرها في هذا الكتاب الاصيلة ، بها ومن خلالها قدم لنا الفنان عالما كاملا يعيش في الظل .. كل شيء فيه عليه مسحة من هذا الظل .. حتى الاماكن التي يكثر ذكرها في هذا الكتاب هي ناطق الظل .. الفواحة بالتاريخ المثقلة بظل رؤى كثيفة . لا يجهضها الضوء في وسط المدينة . لا تدوسها الاقدام الغافلة دون ان تنتبه الى سرها الدفين ، لا ينال من ثرائها املاق المارة فيها ، بل يضفي على ظلها وظلالها .. ظلت كل شيء في العالم الذي يجوسه هذا الكتاب تسبح في مغيب دائم حتى قيض لها القلم الفنان الذي اراق عليها من ضوء فهمه وحساسيته دون ان يجهز على ما بها من سحر وشاعرية .

القاهرة

صبري حافظ